اسبانية في الزمن الحاضر

بقلم الاب فليكس تريبرا الاسباني

توطئة

رغبت الينا « المشرق » في ان نطلع قرّاءه الافاضل على حالة بلادنا اليوم ، بعد الثورة الاخيرة . فلبينا الطلب بطيبة خاطر ، اذ تحققنا في ارباب الثقافة العالية من الشرقيين ميلاً حقيقياً الى اسبانية واهتماماً بشؤونها . وسبب ذلك لا ينحصر فقط بما تمثله اسبانية من ادب وفنّ عربيين ازدهرا في العصور الغابرة ، بل لانها لم تزل حتى اليوم بلداً كاثوليكياً قحاً قوي الايمان متين العقائد . ولقد سرّنا كل السرور اذ رأينا فرصة مناسبة نظهر بها شيئاً من الشكر على ما صادفناه من اللطف وحسن الاستقبال مدة اقامتنا في هذا الشرق العزيز .

مفاجأة الثورة

منذ ثلاثي سيطرة الجنرال بريمو دي ريفيرا ، اخذت الحوادث الفجائية تتتابع في اسبانية بسرعة غريبة . وكانت أخراها ثورة ١٤ نيسان ١٩٣١ التي استغرب الجميع فجاءتها حتى القائمون بها انفسهم . وقد اقرّ بذلك رئيس اللجنة الثورية ، ورئيس الجمهورية الحالي ، السيد نيسيتو ألكالا سامورا ، يوم اعلان الجمهورية ، فقال انه لم يكن لينتظر نجاحاً كهذا الا بعد عمل جادّ متواصل مدّة ثلاثة اشهر على الاقل . وقبل الانتخابات البلدية بيوم واحد ، تلك

الانتخابات التي جرت بعد رحيل الملك بيومين ، صرّح السيد كامبو ، وهو من اشهر سياسيي اسبانية وابعدهم نظراً ، انه من المستحيل ومن غير المعقول ان يحقق الفوز للجمهوريين . وكذلك كانت حالة الكاثوليك ، وزيد بهم خصوصاً ارباب الفرق الكاثوليكية ورجال الدعايات والعمل ، فان الموجة الثورية فاجأتهم في زمن كانت فيه الروح الدينية خامدة وكان الرؤساء يبذلون الجهود في ايقاظها .

ولم يكن يبشر بهذا الانقلاب القريب بتلك السرعة الفجائية الا المتطرفون في السياسة الاجتماعية كالاشتراكيين وخصوصاً ارباب حزب النقابات (السنديكاليين) ، والفوضويين ، ومن مبدأهم الالتجاء الى الطرق العنيفة وسيلةً لعملهم الثوروي ، فكانوا يعدون الشعب بانقلاب عجيب على اثر الانتخابات .

اسباب الثورة السياسية

ولا يفهم من قولنا ان الثورة حدثت فجأة انه لم يكن لها اسباب هيأتها من مدة بعيدة : فان التغييرات البالغة التي احدثتها لا تنتج الا عن اسباب بالغة ايضاً . وهذه الاسباب عديدة متشعبة . على انه يمكننا ان نردّها الى نوعين مهمين : الاسباب السياسية التي نلخصها في هذا القسم من المقال ، والاسباب الاجتماعية نذكرها في القسم التالي .

اما الاسباب السياسية فاهمها سلوك الملك ، وموقف الاحزاب السياسية ، ودور الجيش .

لا يخفى ان كل من به مسكة من ادراك لا يمكنه ان ينسب ابتعاد الملك وسقوط الملكية الى التهم الفامضة والحيثيات الباطنية التي بنى عليها البرلمان الجمهوري حكمه السريع . على انه من الصعب ان نفهم نيّة الملك وغايته الحقيقية في مجالي عمله السياسي . فان اخلاصه للبلاد ووطنيّته تهاجمهما عدة تهم تنسب اليه الانانية والطموح الى السيطرة . ومهما يكن من امر فلا يمكن احداً ان يُنكر ان سلوك الملك السياسي عمل على تخفيف محبة القوم للملكية وعلى تبريد حماستهم في الدفاع عنها حتى ان كثيراً من السياسيين عدلوا عن نظريّاتهم الملكية شيئاً فشيئاً ولاسيما على زمن سيطرة بريمو دي ريفيرا .

فاخذوا يتردّدون في متابعة مبادئهم ، وينفصل البعض منهم عن قواة حزبهم متجهين جهة الجمهوريين وكان من اجرأهم اقداماً واوفرهم اخلاصاً ، دون شك ، رئيس الجمهورية الحالي السيد نيسيتو ألكلا ساموورا .

كان الرأي العام الاسباني في هذه الحالة المضطربة ، عندما اخذت تنتابه من كل جهة دعاية الجمهوريين الواسعة النطاق التي لم يكن الملكيون — ثقةً منهم بأنفسهم او عجزاً عن مجاراة خصومهم؟ — يولونها ما تستحق من دعاية معاكسة. وعلى اثر ذلك حصلت الانتخابات البلدية ، فكانت اصح انتخابات عرفتها اسبانية واوفرها اخلاصاً . فلم يكن يرى فيها الناخبون ، فوق اسماء المرشحين واحزابهم المتعددة المتباينة ، الا امراً واحداً يستحق الاهتمام والمناقشة وهو : وجود الملك ام عدم وجوده . وليس من الغرابة في شيء ، اذا فهمنا الظروف المذكورة اعلاه ، ان نرى الكثير من الملكيين المجاهدين يعطون اصواتهم لارباب الاحزاب الجمهورية لانهم كانوا لا يرغبون في بقاء الملك الحالي.

فنتج عن هذه الحالة اغلوطة فظيعة لا تصلَح . كيف لا وقد حطّت السياسة بأعلى سلطة في الدولة فجعلتها على مستوى السياسة العاديين يناقش الجمهور حقّها بالبقاء ، كلما شاء ، حتى اذا عنّ على باله طاب منها ان تستفي وتنسحب وهذا ما يشرح لنا قرار الملك بأن يعتزل ميدان العمل ، ذاك القرار الدالّ على الحكمة وبعد النظر دلالته على حراجة الموقف اذ ذاك .

ان تعدد الاحزاب السياسية وتجزؤها الدائم ، وعدم وجود نظام دقيق في داخليتها ، وكثرة المطامع الشخصية ، التي غشّت على ابصار رؤساء الاحزاب فصرفتهم عن الاهتمام بالبرامج الوضعية ، وحالت بينهم وبين العمل باخلاص وامانة ، كل هذا ولّد ، على طول المدة ، حالة مزعجة من اليأس السياسي جرّت البلاد الى الخضوع للسيطرة العسكرية . على ان هذه السيطرة لم تمنع التذمر والاشمئزاز . وكان من الطبيعي ان تسقط . فسقطت وتبعتها الحركة الثوروية . ولا يخفى ما كان للجيش من التأثير في الحوادث السابقة . فقد مثّل دوراً مهماً ، حاسماً احياناً ، في حركات الاحزاب السياسية نفسها ، وفي ادارة الدولة ، وفي السياسة الاجمالية . حتى بلغ من اهمية الجيش ، قبل عهد السيطرة بعشر سنين ،

انه كان يملي ارادته كسلطة خفية فيدير الامور على طريقة سلبية هدّامة ، حتى اذا بدأت السيطرة عهدها ، ظهرت تلك السلطة بأجلى مظاهرها فاصبحت الآمر المطلق في الدولة . وهي ، وان سلمنا بحسن نيتها واخلاصها ، فلا يمكننا القول انها اهتدت الى السبيل الحقيقي لخلاص الوطن .

الاسباب الاجتماعية

يجب ان نضيف الى هذه الاسباب السياسية اسباباً اخرى كانت اعمق تأثيراً وابعد غوراً وهي الاسباب الاجتماعية . فاذا ذكرناها فاننا نلمس الصفة الحقيقية للثورة الاسبانية .

ظهرت هذه الثورة سياسية محضة . على ان المحرّك الاصلي الفعّال الذي دفع بالشعب الى القيام بتلك الحركة كان الوهم بأنها ستتحوّل الى انقلاب اجتماعي . وهناك براهين عديدة تؤيد هذا القول نكتفي منها بمثل واحد . وهو ان الجماهير اندفعت كل الاندفاع في ١٢ نيسان نحو صناديق الاقتراع . وهو حادث قلّما نرى نظيره حتى في البلاد التي تكون فيها المؤسسات الديموقراطية مقررة من مدة طويلة . وفي اسبانية نفسها ، في الانتخابات السابقة ، كان مرشحو اليمين في منطقة برشلونة ينالون الفوز باقلّ من ثلاثين الف صوت اما هذه المرة فوُجدوا امام معاكسة تبلغ ثمانين الف صوت . فلم يتمكنوا بعد الجهد الّا بالاحتفاظ بكرسي واحد لتمثيل الاقلية .

فما هو العامل الذي جذب هؤلاء الجماهير ودفع بهم الى التصويت ؟

هو اولاً تلك الدعاية الواسعة النطاق التي قام بها معظم الشعب من الاشتراكيين وجمهوريي الشمال الذين ، لمّا لم يكونوا ليتصوروا سهولة انتصارهم ، تجاوزوا الحدود في مواعيدهم الخلّابة وبرامجهم الاصلاحية التي كانت كلها تدور حول الانقلاب الاجتماعي . ومما ساعدهم على تحبيش هذه الكمية الوافرة من الناخبين بسرعة عجيبة كان النظام القوي المتصف به حزبا العمال المهمان وهما حزب الاشتراكيين وحزب ارباب النقابات . وقد وافق رجالها على برامج الشمال الجمهوري ونسبوا الى المرشحين العمل في سبيل انهاض طبقات العمال فدفعوا هكذا عمّال المدن

الكبيرة الى انتخابهم تحت تأثير النقابات القوية.

ولا يخفى ان المشكلة الاجتماعية هي المسألة العظيمة في الكون كله في زمننا الحاضر ، تتضاءل تجاهها جميع المسائل القومية والسياسية حتى تظهر كأنها ثانوية . فاذا كان يصدق هذا على بلدان اوربة بأسرها ، فانه اشدّ تأثيراً في اسبانية التي كان من نتائج حيادها مدة الحرب الكبرى انها لم تصب بتأثير الكبرياء القومية والوطنية التي وسّعت نطاقها الحروب الخارجية في شعوب اوربة، فانصرفت من جرّاء ذلك الى المشكلة الاجتماعية وحدها.

وهذا كان من الاسباب العديدة التي جعلت جميع العمّال الاسبانيين تقريباً ينضوون تحت لواء حزبين كبيرين يختلفان باختلاف مبادئ مديري كل منها. فهناك « الاتحاد الوطني للعمل » المعروف بهذه الحروف (C. N. T.) و« اتحاد العمّال العام » المعبّر عنه بالحروف (U. G. T.) . اما صفات هذين الحزبين فان الثاني منها ينتمي الى الاشتراكيين متبعاً الخطّة التي رسمها له بعد الجهد الدائب والعمل الصامت مؤسسه پابلو اگليزياس. ومن الغريب ان «البيطرة» عملت على تعزيز ما كان يقوم به مؤسس الحزب طيّ الخفاء . اما الحزب الاول فيجنح الى المبادئ الفوضوية والشيوعية. وقد توصّل الى زيادة رجاله وتنظيم صفوفهم واظهار قوّتهم بفضل ما لجأ اليه من طرق العنف كالاعتداءات والقاء الرعب . ورجال هذا الحزب كانوا هم ايضاً من المرضيّ عنهم في المدة التي سبقت السيطرة العسكرية في سنة ١٩٢٣ .

ويبلغ عدد المنتمين الى كل من هذين الحزبين نحو نصف مليون. ولا يفتأ الحزبان يتنافسان ويتقاومان احياناً . وحزب الاتحاد الوطني للعمل يشمل غالباً كل العملة الصناعيين في برشلونة ومقاطعة كتالونية ، وهو يبذل الجهد حالياً في بسط نفوذه على ما تبقى من انحاء اسبانية ولاسيما مقاطعة الاندلس. اما اتحاد العملة العام فمركزه الاصلي في مدريد وله مراكز مهمّة في بلاد الباسك والاندلس ، وهو ايضاً يهتمّ بالنفوذ الى كتالونية.

وقد قام الكاثوليك بجهود عديدة في سبيل تأليف حزب ثالث للعمال ولكنهم لم ينجحوا حتى الآن . وليس هناك من حزب كاثوليكي قوي الّا

في محيط المزارعين في بلاد كستيلية وهو « الاتحاد الزراعي الكاثوليكي » الذي لا يزال في عراك مستديم مع الحزبين السابقين اللذين يرميان الى ان يدخلا بين عملة الصناعة رجال الفلاحة والزراعة.

هؤلاء العمال هم ، في الحقيقة ، ارباب الثورة . وقد رموا فيها الى ابعد من الانقلاب السياسي اذ لم يخطروا تغيير نظام الحكومة واعلان الجمهورية الا مقدمة أو مدخلاً لتنفيذ برنامجهم الواسع الذي اشرنا اليه وقلنا ان غايته الانقلاب الاجتماعي . وهذه الغاية وحدها هي التي جيّشت العدد العظيم من الناخبين ودفعت بهم الى صناديق الاقتراع ، رجاء ان يروا ثورة اجتماعية لم تبدأ الا مؤخرًا ومن الصعب ان نرى كيف تنتهي. ويجب ان نضيف هنا ، كي نتمكن من فهم ما تحمله الينا اخبار اسبانية ، ان ذينك الحزبين القويين كثيرًا ما تتعاكس نظرياتهما فيختلفان ويقاوم احدهما الآخر . وان الاشتراكيين المستقلين بالسلطة اليوم يستندون الى اقلية مهمة في البرلمان (وليس هناك من حزب يمكنه ان يستند الى الاكثرية البرلمانية) ويبذلون الجهد في تهدئة الخواطر ، وتخفيف سير الثورة الاجتماعية ، وارضاء الشعب لا بالتحسين الاجتماعي بل بشرائع غايتها مقاومة الدين ورجاله . ويمكننا القول ان حزب الاتحاد الوطني للعمل اصبح كله اليوم في جهة من المعارضة. فان روحه ثورية محضة ، وهو لا يهتمّ بالسياسة ولم يكن ليولي الجمهوريين اصواته الا على سبيل التجربة . حتى اذا تحقّق انه لم يصل الى مطاليبه الاجتماعية شهر الحرب على الجمهورية كما شهرها سابقاً على الملكية، وهو في كل ذلك يستعمل الوسائل العنيفة من اضراب ثوروي وارهاب وما اليها ؛ وكلها ، لسوء الحظ ، وسائل تتفق تماماً واخلاق الشعب الاسباني حتى ان عقلاء البلاد يخشون ان تجرّ الى عهد سيطرة حمراء سوداء تؤدي بالوطن الى حالة فظيعة.

اما مسؤولية هذه الحالة الحرجة التي جرّتها تلك الاسباب الاجتماعية فانها تقع من جهة على اصحاب رؤوس الاموال والمنتجين لما اظهروه من الانانية وحب التسلط ، ومن جهة اخرى على العملة لما اتصفوا به من جهل واستسلام لبعض الزعماء . ولم ننسَ بعد ما بُذل من الجهود وما حصل من

الميراث الدموي احياناً في سبيل الحصول على شيء من التحسين في حالة العملة ، وذلك زمن الحرب الكبرى في عصر كانت فيه ثروات المنتجين تزداد يوماً عن يوم بفضل ما احتفظت به اسبانية من الحياد التام . فكان من الصعب ان يسمع الفريقان كلاماً لا يتضمن التهديد والوعيد . ولهذا بلغنا اليوم ، وليس في ما خص العملة وتأمين حقوقهم شبه نظام يمكن الاستناد اليه للخفض من ادعاءات الاشتراكيين والشيوعيين ومبالغاتهم الخطرة ، ولتأمين حالة العملة ، وهم يمدون بالالوف ، من الذين لا يزالون متمسكين بايمانهم الحي راضين باجرة عادلة كافية ، غير مغترين باحلام الشيوعيين الخلابة ، ولا بسراب الثورة الاجتماعية الوهاج .

يجب ان نطلع كل الاطلاع على هذه الحالة الاجتماعية كي نتمكن من فهم تسرع الحكومة الحاضرة في سن الشرائع اللادينية ، وموقف الكاثوليك موقف الرجل الاعزل تجاه هجمات الاعداء الالداء .

الحالة الحاضرة

تقف اسبانية في الزمن الحاضر على مفرق خطر في تاريخها العام . ولا يخفى انها ، بسبب كونها لم تشترك بالحرب الكبرى ، تختلف عن سائر بلدان اوربة في حالتها الاقتصادية ودرجة الاهتزاز في شعورها الوطني . وهما ، اي الاقتصاد والقومية الوطنية ، القطبان اللذان تدور حولهما المدنية الاوربية منذ اربعة قرون .

اما في ما خص الاقتصاد فان الازمة العالمية يظهر تأثيرها في اسبانية ضئيلاً جداً بحيث يمكن تلافيها بكل سهولة . واما في ما خص القومية فاننا بينا نرى الشعور الوطني على اشده في دول اوربة ، سواء في ذلك الظافرون في الحرب المتفاخرون بطولهم والمغلوبون المتألمون بعارهم ، نرى اسبانية منفتحة الابواب لاستقبال عواطف الدعاة الى الوطنية العالمية اولئك الراميين الى رفع حواجز الحدود وفواصل القوميات في سبيل وحدة الشعوب جميعها .

وقد يكون من هذه الحالة الخطر العظيم على حياة اسبانية او الوسيلة الفعالة لخلاصها ، وذلك بحسب ما يكون موقفها تجاه مجاري الافكار العصرية . فمن

جهة نرى الاشتراكية وما تجرّه من مبادئ شيوعية وفوضوية ، ومن جهة اخرى نشاهد الكثلكة وما تحمله من احترام للحرية البشرية ومن دفاع عن حقوقها ومن عمل على تحسين الحالة الاجتماعية ضمن نطاق النظام والترتيب. فإمّا الإشتراكية وإما الكثلكة ؟ إمّا رومية وإمّا موسكو ! وهما القوّتان اللتان تتصارعان اليوم حول اسبانية.

كانت اسبانية دولة كاثوليكية محضة ولمّا تزل على رغم بعض المظاهر اللادينية . ولا بدّ من التصريح انه لولا ما توهمه كثير من كاثوليك اسبانية غير المجرّبين من انهم يعملون على انشاء جمهورية معتدلة في ما خصّ العواطف الدينية ، بل جمهورية كاثوليكية ، لما ساعدوا على قلب نظام الحكم ، ولما ظهرت الجمهورية الحالية بفضل معاونتهم . ولقد كان هذا الوهم سبب الارتياح الشامل الذي صادفه اعلان الجمهورية الجديدة دون ان تهرق نقطة دم مما حيّر الرأي العام العالمي بجملته.

على انه سرعان ما تبدّد هذا الوهم اذ اخذت الجمهورية تهتدي بهدي الماسونية على طريق العلمانية المحضة الظاهرة بمظهر الاضطهاد الديني الذي كان اليسوعيون اولى ضحاياه ، مما احدث اسوأ تأثير في جميع الاوساط الوطنية. وقد عبّر عن هذه العاطفة احد رؤساء الاحزاب العلمانية الجمهورية السيد اورتيگا گاسيت بتلك المجلة الشهيرة : « ان الجمهورية بدأت تضجر ! »

وقد استفاد القائمون بتلك الحركة من اضطراب النظام في احزاب اليمين ، ومن حماسة القوم الابتدائية وارتياحهم الاولي لشكل الحكومة الجديد ، فألفوا مجلساً لم يمثّل قطعاً جمهور الشعب الاسباني . ثم اسرعوا بنشر دستور استحق الرفض والاحتجاج من قبل جميع الاساقفة الاسبان لما تضمّنه من مبادئ ترمي الى وضع الكنيسة الكاثوليكية تحت سلطة الدولة . اما الآن فلا يزال ارباب الحكم يوالون سنّ القوانين التكميلية لاتمام ما شرعوا به من تطبيق المبادئ الوخيمة. وهم يستعملون في ذلك وسائل عنيفة تذكرنا بعهد السيطرة ، ويسرعون في اعمالهم خوفاً من انقلاب جديد على اثر استفتاء الشعب. وهناك اعداء النظام العمراني ينظرون بكل ارتياح الى هذا الاتجاه ، ويشجعون الاضطهاد الديني ،

مقتنعين الفرص المناسبة لمتابعة الانقلاب الاجتماعي بفضل ما يبذلونه من ذهب موسكو ، فيستفيدون من جميع الثاغبات الناتجة طبيعياً عن تلك الحالة ، لتعزيز بوادر الاضراب ومظاهر العصيان.

اما الكنيسة ، وهي الساهرة على ابنائها المراقبة بعين الحذر الحالة الحاضرة وتطوراتها ، فانها سنّت لرجالها خطة يسيرون عليها اذا ما ارادوا خلاصهم وخلاص بلادهم . وهي تقوم اولاً بان لا يتحيّزوا ، بصفة كونهم كاثوليكيين ، الى نظام خاص من انظمة الحكومة . وثانياً بان يتحدوا جميعهم ، من اي حزب كانوا ، في سبيل الدفاع عن المبدأ الديني السامي . وان يهتموا خصوصاً بتجديد الحياة الدينية الفردية كي يتمكنوا من تجديد النظام الاجتماعي على اركان ثابتة. وقد بدأت جميع الاوساط الكاثوليكيّة بتنظيم صفوفها طبقاً لهذه الخطة وبالسير معاً في طرق العمل والجهاد.

فان شاء الله ان يخرج اسبانية من تحت نير البلشفية الشديد الخطر عليها في هذه الحالة الحرجة ، وان يخلّصها من خطر اشدّ هو انقسام الكاثوليك الداخلي ومطاحناتهم الشديدة ، فاننا لا نلبث ان نرى الايام السعيدة رجعت الى تلك البلاد — تحت ظل النظام الجمهوري او الملكي فلا فرق ! — فاستعادت الديانة مقامها السامي في الدولة ، واسترجعت اسبانية تقاليدها الكاثوليكية الفخمة.